

فوائد الذكر وغوائل النسيان

أدام الله عليك نعمة الثقة بالنفس وعمر قلبك بالإيمان ،
وأيدك بفضيلة الذكر وأبعد عنك آفة النسيان .

وقد رجوت منك - أيها الأخ الصديق - أن تذكر
ما طلبته منك ، فزعمت أنك لا تنسى !

اللهم وجل من لا يسهو . سبحانه وتعالى فهو القائل في
محكم التنزيل « لا يكلف الله نفساً إلا وسعها لها ما كسبت
وعليها ما اكتسبت ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا » .
فكيف تذهب في ثقتك بنفسك واعتزازك بها واطمئنانك إليها
واعتمادك عليها إلى دعوى العصمة من النسيان .

حقاً إن الثقة بالنفس فضيلة في كل شخص يريد أن
يعيش في هذه الحياة سيداً لا مسوداً ، وحاكماً لا محكوماً ،
وعزیزاً لا ذليلاً . وهي ألزم الفضائل لمصر في عهدنا الجديد .
وهي أول شرط من شروط التذكر ، لأن الذاكرة ليست شيئاً
آخر إلا « النفس » ، فالثقة بها حياة الذاكرة ، أو حياتها .

ولا تحسبن أني ألعب بالألفاظ حين أجعل النفس مرادفة

للذاكرة ؛ فأنت تعرف ولا ريب مذهب برجسون ، وتعرف كتابه المشهور « المادة والذاكرة » الذى يقابل فيه بين الجسم والنفس ، بين المخ والشعور ، إلى أن يقول فى ختام كتابه : « بالذاكرة نصبح حقاً فى ميدان النفس » .

وسأزيدك بهذه النظرية بياناً خلال فصول هذا الكتاب . وإنك لعلى حق حين عوّلت على الذاكرة وأودعتها ثقتك ، لأنّ فوائد الذاكرة فى الحياة النفسية والاجتماعية من الخطر بحيث تبطل كل حياة تخلو من الذاكرة ، وترتقى الأحياء مع سعتها وشمولها وحسن استخدامها .

ولعلك تعجب من نسبة الذاكرة لسائر الكائنات الحية كالنبات والحيوان . ولكن عجبك يزول بعد النظر إلى أصناف الذاكرة ، أو إلى قسميها المشهورين : الآلية والشعورية .

يقسم برتراند رسل فى كتابه « تحليل العقل » الذاكرة قسمين : ذاكرة العادة وذاكرة المعرفة ، Habit-memory Knowledge-memory . وإلى مثل ذلك يذهب برجسون أيضاً مع قليل من الاختلاف . وهناك أقسام أخرى لا محل لذكرها الآن . والعادة ميل إلى أداء عمل من الأعمال نتيجة التكرار ، حتى يصبح هذا العمل « آلياً » كالمشى والكتابة وتناول الطعام وما إلى ذلك .

ويبتجيه معظم علماء النفس المحدثين إلى إخراج هذه الأعمال الآلية من ميدان الذاكرة التي يقصرونها على الأمور التي ندركها مع شعور ومعرفة .

ومع ذلك فنحن نلاحظ في حياتنا اليومية اختلال بعض الأعمال العادية التي نكررها آلياً ، ولا يمكن أن نعلل هذا الاختلال إلا بالنسيان . مثال ذلك الذي يصلي العصر وهو يعلم أنه أربع ركعات ، يكررها اعتياداً ، وقد ينسى فيزيد ركعة أو ينقص ركعة من غير أن يدري ، إذا كان مشغول البال . ورأيت زميلاً في أيام التلمذة منذ أكثر من ثلاثين عاماً وقد لبس وهو ذاهب إلى المدرسة « لبدة » فوق رأسه ، بدلاً من الطربوش ، فلما نبهته إلى ذلك عاد إلى منزله مسرعاً وغير لباس رأسه . ذلك أنه كان معتاداً أن يصلي الصبح مغطياً رأسه بهذه اللبدة ، فنسيها على رأسه مع العجلة . ويروي عن أديسون - فيما أذكر - أنه أخذ يحل مسألة رياضية عويصة اشتغل بها عقله وهو في الشارع ، فأخرج من جيبه قطعة من الطباشير ، ورأى أمامه عربة أجرة ظهرها أسود كالسبورة ، فشرع يكتب عليها ، حتى إذا سارت العربة رأى الناس رجلاً يجرى وراءها وهو ممسك بالطباشير ولا يزال يكتب .

من أجل ذلك عدَّ بعض علماء النفس الأعمال العادية من جملة الذاكرة ، وفسروا اختلالها بالنسيان ولو أنه صادر عن اللاشعور .

ولرجع إلى بيان فوائد الذاكرة بوجه عام ، دون اقتصار على ذاكرة المعرفة والشعور . فقد تفسر لنا هذه النظرة الشاملة حقيقة الذكر وطبيعة النسيان .

فالذاكرة تظهر كما قلنا مع أدنى الكائنات الحية درجة ، لأن الكائنات النباتية والحيوانية الأولية تحتفظ بآثار التغييرات التي تؤثر فيها . فهناك زهور تتحرك مع الضوء في النهار ، فتظل حركتها بعض الوقت حتى بعد حلول الظلام . وتظهر بعض الحيوانات المائية على رمال شاطئ البحر مع الجزر وتعود إلى الماء مع المد ، فإذا وضعت في إناء زجاجي استمرت تفعل الحركة نفسها الدورية عدة أيام . ودرس الدكتور مارتن نوعاً من الديدان البحرية يعيش على شاطئ المانش ، يسمى كونفولوتا *Convoluta* ، وأثبت وجود هذه الدورات الحيوية واستمرارها حتى بعد انعدام المؤثر الذي يحدثها .

وتتبع العلماء نشأة الذاكرة في أنواع الحيوان كالأسماك والزواحف والطيور والثدييات المختلفة ، وانتهوا إلى هذا القانون الخاص بالذاكرة وهو : يزيد النسيان مع الجذر التربيعي

للزمن الذي ينقضى بعد الحفظ والاكتساب .
وهذا القانون ، قانون النسيان الذي ينطبق على الحيوانات ،
ينطبق كذلك على الإنسان ، مما يدل على أن الطبيعة تجري
من حيث الحفظ والاكتساب ومن حيث النسيان تبعاً لقانون
واحد .

فالعادات التي تكتسب مع التكرار تسهل العمل وتجعله
أدق وأسرع وأتقن .
ولا نود الإطناب في بيان فوائد الذاكرة الآلية ، ولنتحدث
عن مزايا ذاكرة المعرفة التي تمتاز بالشعور وبإدراك الزمان
الماضي .

فالمدرجات الحسية تحتاج في معرفتها إلى التجارب السابقة .
انظر إلى الأشياء التي تحيطك ، والتي يخيل إليك أنها مألوفاً
لا تحتاج إلى ذكريات ماضية ، تجد أنها لولا معرفتك السابقة
بها ما استطعت الآن إدراكها . هذا كتاب ، وهذا قلم ،
وهذا باب ، وهذه نافذة ، وهذه منضدة ، وهذا الشخص
الواقف أمامك هو أخوك محمد أو صديقك حسن . أيمكن
أن تنسى هذه الأشياء فلا تعرفها ؟ نعم إذا أصيبت الذاكرة
بعارض من العوارض ، فيحس المرء ولكنه لا يعرف ما يحسه .
فهذه حالة فتاة تسمى موديست Modeste ، ذكرها الدكتور

جان ديلاي في كتابه «أمراض الذاكرة»^(١) قال : «تبلغ موديست الثالثة والعشرين ، أصيبت برصاصة مسدس في الجانب الأيمن من المخ ، فأصبحت لا تعرف إذا كانت مغمضة العينين الأشياء المألوفة التي توضع في يدها اليسرى . إنها لا تزال تحتفظ بإحساسات اللمس ، ولكنها لا تميز نوع الأشياء . قالت عن قلم رصاص وضع في يدها اليسرى : «إنه صلب ، ناعم الملمس ، طويل ، مخروطي ، في نهايته نقطة مدببة» . وعن ملعقة : «شيء صلب بارد ، معدني ، رفيع من الوسط ، إحدى نهاياته مفرطحة ، والأخرى أضخم ، بيضاوية الشكل ، محفورة» . وهكذا تجهل موديست الأشياء المألوفة ، مع أنها تعرفها إذا وضعت في يدها اليمنى ، كأن يدها اليسرى قد نسيت ما تعلمه اليمنى» .

لقد ارتدت هذه الفتاة كالطفل الرضيع قبل أن يدرك ، فالطفل في الشهر السادس يبدأ يمسك الأشياء التي تحيطه بيديه ، كالكوب مثلا أو الصندوق ، فيضع يده بداخله ، ويتحسس جوانبه ، ويظل على هذه الحال مدة طويلة ، لأن إدراك الصندوق بالبصر لا يؤدي إلى معرفة طوله وعرضه وعمقه ، بل تتدخل في معرفته عدة إحساسات بصرية ولسية ،

(١) Jean Delay: Les Maladies de la Mémoire, Paris 1942, P. 31

وسمعية أيضاً لإدراك صلابته ، وهذه كلها تجتمع وقتاً بعد وقت ، وترتبط بعضها ببعضها الآخر ، حتى يدرك الطفل بعد اجتماع هذه الخبرة على مر « الزمان » في صفحة « الذاكرة » أن هذا الشيء صندوق .

والذاكرة هي التي تعين الإنسان على التصور وعلى التخيل السليم أو المريض . فإذا استحضرت صورة صديق لك في ذهنك فإنما تستعين بالذاكرة على استحضارها . وإذا تخيل مهندس مشروعاً مثل زراعة الصحراء والبحث عن الوسائل المختلفة لريها فإنه يلجأ إلى معلوماته السابقة .

والتمييز بين الذاكرة والتخيل معروف من قديم ، فهذا أرسطو يقابل بينهما لأن الذاكرة تشمل الصور التي سبق إدراكها في الماضي واختزنها الذاكرة كما تحتفظ الخزانة بالأشياء . فالتذكر في هذه الحالة يؤدي إلى التمييز بين الماضي والحاضر، وبين الحقيقي والمتخيل . إننا نتذكر الواقع ، ولكننا أحرار أن نتخيل ما نشاء . وفي ذلك يقول كانط : « إذا تخيلتُ منزلاً في إمكانى أن أتمثل السقف في أسفله والأساس في الهواء ، ولكني حين أتذكر منزلاً فأساسه دائماً في أسفل وسقفه في أعلى الهواء » . وهذا التأليف الوهمي يعتمد على معرفة عناصر البيت وأجزائه التي سبق إدراكها واحتفظت الذاكرة

بها . والحال كذلك في الأحلام .
والذاكرة أساس الشخصية .

وليس للطفل الوليد شخصية ، إذ ليس له ماضٍ ، وليست له ذاكرة . وهو عند ولادته ، وبطل كذلك بضعة أشهر ، جزء من العالم كمنقطة من ماء البحر ، حتى يبدأ في تمييز أتيته ، والشعور بوجوده ذاتاً مستقلة هي « الأنا » في مقابل ما عداه أي « اللا أنا » . وإذا تأملت الطفل في الشهر السادس تجد أنه يقبض على الأشياء بيده ثم يلقيها بعيداً عنه ، ثم يطلبها حتى إذا قبض عليها ألقاها ثانية ، وهكذا حتى يثبت عنده ، أو في « ذاكرته » أن هذه الأشياء مختلفة عنه ، وأن « أنا » الطفل مغايرة لهذه الأشياء . فإذا تبعنا تكوين هذه الأنا ، وهي النفس ، وهي الشخصية التي تميز هذا الشخص عن ذاك وهذا الفرد عن هذا الفرد ، رأينا أنها ليست شيئاً آخر إلا اجتماع الذكريات واختزانها عن الأشياء الخارجية التي ندركها ، وهذه الأشياء ذات فائدة لنا وهي التي نتعامل وإياها . وكلما كبر الطفل اتسعت أمامه دائرة هذه الأشياء ، وأصبح لكل فرد عالم خاص يعيش فيه ويذكره أكثر من غيره . سألتني تاجر صديق تلمي تعليماً يسيراً فقال إنه يحاول أن يستكمل تعليمه وبخاصة اللغات كالفرنسية والإنجليزية لفائدتهما في

عمله : ولكنه لا يحس في نفسه إقبالا ، ويضيق صدره إذا قرأ كتاباً . وتعلم اللغات يحتاج إلى ذاكرة جيدة ، مع أن النسيان ليس طبيعة فيه ، لأنه يتذكر « فواتير » الحساب بأرقامها حتى بعد مضي عدة سنوات ، فما سبب هذا الفتور ، وما علة ضعف ذاكرته في غير التجارة ؟ وتعليل ذلك يسير ، لأن شخصيته شخصية تاجر ، فهو يذكر كل ما يتعلق بفنه ، والتجارة عنده هي العالم الذي يعيش فيه ولا يحفل بسواه . والحال كذلك في كل صاحب صناعة . فالممثل المطبوع يحفظ أدوار تمثيلته ولا يجد في ذلك مشقة . فالشخصية تمتص من العالم الخارجي ما يلامها وتذكره ولا تنساه . إنها تفاعل بين الأنا واللاأنا تحتفظ فيه الأنا بأمور وتغفل غيرها ، وهذه الأمور التي تحتفظ بها لا تتوقف على تأثير اللاأنا فقط بل على استعداد الأنا الطبيعي . وهذا هو السبب في أن الأشقاء تختلف شخصياتهم مع أن تأثير البيت واحد . وكذلك تلاميذ المدرسة الواحدة الذين يعيشون معيشة داخلية ويخضعون لنظام واحد ويتأثرون بمعلمين بأعيانهم يختلفون فيما بينهم باختلاف أخذهم عن هذه التأثيرات .

والصفات المكونة للشخصية يكتسبها صاحبها من البيئة وتستقر في نفسه بالتذكر ، ونعني بهذه الصفات الميل إلى

الاجتماع أو الانطواء على النفس ، وإلى العدوان أو المسامحة .
وإلى النظام والترتيب أو الفوضى ، وغير ذلك . فالشخصية
هى مجموعة ذكريات معينة تكتسب فى الماضى وتظل مستمر
فى الحاضر .

والذاكرة أساس الحياة العقلية

ذلك أن المعانى الكلية ، وهى حجر الزاوية فى الحياة
العقلية ، تكتسب من النظر إلى المعانى الجزئية ، فيحتفظ
الإنسان بالمتشابه منها ويرتفع إلى تكوين معنى كلى . وهذا
ميل طبيعى ، نعى القدرة على التعميم ، تعين الذاكرة عليه .
ويبدو هذا الميل عند الطفل الصغير ، فهو يعرف أباه ويميزه
رجلا لأن له شارباً ، فإذا رأى رجلا آخر له شارب قال عنه
« بابا » . وعندما يكبر بعض الشيء يجد أن الشارب ليس
من الصفات الجوهرية التى تميز الرجال . وعلى هذا النحو
يدرك الطفل عندما يبلغ الثالثة أو الرابعة المعانى الكلية العامة
للأشياء التى تحيطه كالتفاح والبرتقال والباب والنافذة والعصفور
والقطة والكلب وما إلى ذلك ، حتى إذا قدمت إليه تفاحة ميزها
وعرف أنها من هذا الصنف .

وعلى هذا النحو أيضاً تنشأ المبادئ العقلية التى تكتسب
من التجارب وتحتفظ بالذاكرة ، مثل مبدأ التشابه الذى رأينا

أنه أساس تكوين المعاني الكلية ، ومبدأ السببية ، وهو عماد العلوم . وقد أنكر الفلاسفة حقيقة هذا المبدأ وناقشوا صدقه وذهبوا إلى انعدام الضرورة التي تربط بين الأسباب والمسببات ، كما فعل الغزالي وهيوم وكثير من المحدثين . ويقول الغزالي في كتابه تهافت الفلاسفة « ليست النار هي التي تحرق القطن إذ يجوز في المستقبل أن ينعدم فعل النار . ولكن الطفل الصغير الذي لا يعرف النار ولا يعرف أنها تحرق ، يرى ذلك لأول مرة ، ويجرب ذلك على نفسه ، فإذا اقتربت يده من النار وأحس بألم إحراقها ، ثبت ذلك في ذاكرته ، فلم يعاود اللعب بالنار ، وأصبح يدرك أن النار « علة » الإحراق ، بل أكثر من ذلك يعمم الطفل السبب ويطلقه على الأمور المشابهة ، ولذلك جاء في أمثال العامة : « اللي يخاف من الثعبان يجرى من الحبل » .

حتى إذا ارتقت الإنسانية ، واجتمعت لديها التجارب جيلاً بعد جيل ، اشتد ساعد العلم ، وصاغ العلماء القوانين والنظريات . وليست القوانين العلمية إلا تلخيصاً واسعاً للمشاهدات يستند إلى الذاكرة ، مثل قولنا الحرارة تمدد الأجسام ، والخشب يطفو على وجه الماء ، والجسم المغمور في الماء يندفع من أسفل إلى أعلا بقوة تساوى حجم السائل المزاح ، وهكذا .

وليست هذه القوانين من عمل فرد واحد . بل هي أثر اجتماعي نتيجة الحضارة ونتيجة الذاكرة الاجتماعية وتقدم التجارب البشرية على مر الأجيال . حتى إذا ازدحمت العقول بالمعلومات ، وعجز الفرد الواحد عن استيعابها في صفحة ذاكرته ، احتاجت الإنسانية إلى وسيلة أكثر رسوخاً لحفظ هذه المعلومات فاخترعت الكتابة ثم الطباعة وأنشئت المكتبات التي تزخر بآلاف المجلدات والتي تخزن تاريخ الأمم وسير الأفراد والملوك وأنواع العلوم المختلفة مما لا يمكن أن تعيه ذاكرة فرد واحد .

وكلما إرتقت الحياة الاجتماعية وتقدمت الحضارة أصبحت حاجة الإنسان إلى المعرفة الواسعة بالأحداث الجارية والماضية ، وبالفنون المختلفة والصناعات المتباينة ، وبالعلوم التي تقوم عليها هذه الفنون والصناعات أشد وألزم حتى يستطيع مسايرة ركب الحياة . هذا إلى أن الحياة الحديثة لا تحتاج إلى الثقافة العامة الواسعة فقط بل إلى « التخصص » الشديد في كل فن ، حتى لقد انقسم الطب إلى فروع ، واختص في كل ناحية من كل فرع إحصائي لا يتعدى أحدهم على اختصاص غيره . وهذا هو الشأن في الزراعة ، كالذي يختص بزراعة القطن ، أو القمح أو الأرز ، أو الحضر ، أو الفاكهة . وقد رأيت في الريف قوماً

ينقطعون إلى زراعة الطماطم ، وآخرون إلى غرس الموز ويسمى الواحد منهم « موازاً » . وحدثني مزارع أنه مختص بزراعة البطاطس فقط . وكذلك الحال في التجارة وسائر الفنون والصناعات .

ولما كانت هذه المعلومات لا تحصل إلا بعد زمان طويل ، يقضى المرء بعضه في المدرسة ، وبعضه في الحياة العامة ، وكانت هذه المعلومات واسعة سعة عظيمة تشمل المطولات من الكتب ، احتاج الطلاب ولا ريب إلى ذاكرة قوية منظمة يستعينون بها على تحصيل هذه المعلومات ، وبخاصة لأن المجتمع الحديث يحكم على الفرد بمقدار علمه ، أى بمقدار تحصيله ، فلا يقبل صاحب العمل عاملاً أو موظفاً إلا بعد امتحان ، ولا ينجح الطالب في المدرسة إلا بعد اجتياز الامتحان . ومن أجل ذلك برزت قيمة الذاكرة عاملاً هاماً من عوامل النجاح في الحياة .

ونشأت عن ذلك دراسات حديثة تهدف إلى بيان أقوم الطرق للتذكر وأحفظها عن النسيان ، وأجرى العلماء تجارب استخلصوا منها قوانين التذكر وقوانين النسيان ، وانتهوا إلى أن السبيل القويم لحفظ المعلومات واستحضارها عند الحاجة إليها هو حسن تنظيمها وتصنيفها ، ثم ربطها بعضها ببعضها

الآخر ، وأن يكون الإنسان سيد ذكرياته بطلبها حين يحتاج إليها فتستجيب له حتى لا تصبح عبئاً ثقيلاً لا قيمة له .

ومع هذه الفوائد الكثيرة للذاكرة في سائر أنواع الحياة ، فالنسيان مفيد في كثير من الأحيان ، بل قد يكون ضرورياً . والذاكرة في واقع الأمر مزيج من الذكر والنسيان ، حتى لقد ذهب بعض علماء العربية إلى أن لفظ الإنسان مشتق من النسيان .

ولا تعجب من قولنا إن النسيان ضروري للحياة النفسية ، لأن ما تقع عليه أبصارنا كل يوم وكل ساعة وكل لحظة لا يدخل تحت حصر ، وكذلك جميع ما يصل إلينا بطريق الحواس ، فلو ذكرنا كل شيء لاختلط الجليل بالتافه ، وامتزج المفيد باللغو والباطل . وقد حدثتك عن ميل الطفل الطبيعي إلى صوغ المعاني الكلية التي يركز فيها المجموعة الواسعة من المحسوسات ، وحدثتك عن اتجاه الحضارة إلى تلخيص العلوم في صيغة قوانين عامة تغني عن الجزئيات .

ثم إن الحياة بطبيعتها متطورة متغيرة يحتاج فيها المرء إلى ملاءمة نفسه مع هذه الألوان المتغيرة من الحياة ، فيضطر إلى تحرير نفسه من الماضي بنسيانه ليتسنى له التوافق مع الحياة الجديدة . لذلك كان النسيان ضرورياً لحرية الإنسان ،

فلا يعاود حياته الماضية كما هي .

هذا إلى أن كثرة ترداد الذكريات الماضية يجعلها عادية أوتوماتيكية ، فيصبح المرء كالألة . أو كالحيوان الذي يتصرف بالغريزة ، ويصبح عبداً لها لا سيداً حاكماً صاحب سلطان عليها .

ويحتاج استخدام الذاكرة إلى اختيار ، وينبغي أن نحسن هذا الاختيار إذا أردنا النجاح في الحياة ، فلا ينفك المرء عبداً لحياته الماضية يعيش فيها أبداً ولا يخرج عن دائرتها .
وكثيراً ما يكون النسيان رد فعل طبيعي لسلامة الحياة واستقامتها ، فقد تمر بالإنسان ذكريات فاجعة كلما استعادها تألم الألم الشديد ، كالذي ذهب ثروته أو فقد ابنه الوحيد ، فإذا لم يستطع إلى النسيان سبيلاً بإرادته ، أو لم تعينه الطبيعة بفقدان الذاكرة ، فضل الموت على حياة مملوءة بالآلام ، فأقدم على الانتحار . والشواهد على ذلك كثيرة في التاريخ نذكر منها مأساة كليوباترة ومارك أنطوان .

صفحات الماضي وأغوار الزمان

ذاكرة المرء كتاب تسطر صفحاته على مر الأيام ،
 فهي أشبه بالمفكرة التي يسجل فيها الإنسان يومياته ، ويكتب
 فيها الأحداث التي مرت عليه ليرجع إليها في المستقبل عند
 الحاجة يقرأ ماضيه . وكل منا يكتب يومياته في مفكرته على
 نحو معين هو الذي يهيمه ، وكذلك ذاكرة كل واحد منا
 لا تحتفظ إلا بما شاء أن يسجله ، فهي تثبت وتمحو ، تثبت
 ما يهمننا وتغفل ما لا نحفل به . فلا تحسبن أن الذاكرة تسجل
 كل بادرة وخاطرة وواقعة .

وكما تصاب اليوميات بأفات فتتآكل منها صفحات ،
 ويهت الخبر الذي تكتب به بعض الصفحات وبخاصة القديمة
 منها ، وقد ينتزع منها بعض الصفحات فتطير وتضيع ،
 وقد تصاب بنحرم تذهب معه بعض الأوراق ، كذلك الذاكرة
 الإنسانية تصيبها مثل هذه الآفات ، فتضيع منها صفحات ،
 ويهت بعضها الآخر ، ويمحى بعضها الثالث ، وكل ذلك في
 صفحات الماضي الذي سجله المرء خلال الحياة . وهذه الآفات
 هي التي يعبر عنها بأمراض الذاكرة ، وهي التي تحدد أنواع



النسيان ، مما تفرد له فصلا برأسه فيما بعد .
 أما الآن فنود أن نتحدث عن هذا الزمان الذى يضم فى صدره هذه الذكريات ، ما هو ، وعلى أى هيئة يكون ؟
 الزمان هو الماضى والحاضر والمستقبل .
 أو هو ما فات وما هو آت .
 أما الآن أو الحاضر فهو نقطة وهمية فى بحر الزمان ، لأنك كلما أردت الوقوف عندها مر بك الزمان ، فإذا بها تصبح من جملة الماضى .

وإذا وقفت عند الحاضر واستغرقت فيه نسيت الزمان ، ويطول هذا النسيان بمقدار استغراقك فيما أنت فيه واستمتاعك به . وقد تمر بك الساعة كأنها لحظة ، أو تمر بك اللحظة وكأنها دهر . ومن المعروف أن الناس يقطعون الوقت بالحديث والسمر والاستماع إلى الموسيقى والذهاب إلى السينما أو دور التمثيل . فأنت تقطع الوقت بأن تستغرق فى شىء خارجى ينسبك نفسك فينسيك الزمان .

من أجل ذلك كان التذكر وثيق الصلة بالزمان ، أو هو الزمان عند بعض الفلاسفة .

قد ترى شخصاً فتحدث نفسك أين رأيت ، وتفتش فى ذاكرتك وتقلب صفحات كتابها حتى تدرك أنك رأيت

في الإسكندرية في مكان معين من العام الماضي ، وقد تحدد الوقت أكثر من ذلك فتعرف اليوم والساعة . مهما يكن من شيء فالذي يهمننا هو استحضار الذكرى من الماضي إطلاقاً ، أما تحديدها في مكان معين وزمان معين فهذا شيء آخر مكمل للذاكرة الجيدة . ولنفرض أنك دخلت حجرة لأول مرة فأدركت فيها الأثاث موضوعاً بشكل معين وأدركت الصور المعلقة على الجدران ، ثم دخلت هذه الحجرة نفسها بعد عام فإنك تدرك في الحال أنك قد سبق لك رؤية هذه الأشياء في زمن مضى سواء عرفت الوقت الماضي تماماً في اليوم والساعة ، أو عرفت فقط أنه كان في الماضي . أما إذا نسيت ، ووقفت في هذه الحجرة وكأن كل شيء فيها جديد بالنسبة إليك ، أصبح الماضي الذي مرّ بك كأن لم يكن ، وإذا أنت تعيش في الحاضر فقط .

فالنسيان فقدان بعض أحداث الماضي ، والنسيان المستمر فقدان الزمان .

وهذه قصة امرأة اسمها نومي Noémi (عن كتاب جان ديلاي) تبلغ من العمر الرابعة والستين ، وقد أدخلها أخوها في مستشفى الأمراض العقلية لأنها فقدت الذاكرة تماماً ، وأصبحت لا تعيش إلا في الحاضر .

إنها تذكر اسمها ولكنها لا تذكر سنها ولا عنوان سكنها .
وهي لا تدري أنها كانت ذات مهنة مع أنها زاولت الطب ٢٥
سنة ، وكانت تشرف بنجاح على إحدى المستشفيات . إنها
لا تكاد تقرأ الصحيفة حتى تنساها ، وتنسى الإجابات على
الأسئلة ، والزوار الذين يحضرون لرؤيتها ، وتعتقد أنها ترى
وجوه المتصلين بها منذ مرضها لأول مرة مع أنها تراهم كل يوم .
وقد خيل إلى بعض الفلاسفة أن الزمان ليس شيئاً خارجياً
له حقيقة واقعة ، بل هو من أنفسنا ، كما ذهب إلى ذلك كانط
فقال : إن الزمان صورة عقلية أولية نفرضها على الأشياء حين
ندركها . ويقول برجسون في كتابه «المعطيات المباشرة للشعور» :
إن التعاقب الذي نراه في مرور عقارب الساعة إنما يوجد بالنسبة
لملاحظ شاعر يتذكر الماضي .

ينشأ إدراك الزمن والإحساس به من تقلب المظاهر الخارجية
مع اختلافها في النوع والشدة وتناسبها في الإيقاع ، كاختلاف
الليل والنهار ، وانتقال الشمس من المغرب إلى المشرق
وما إلى ذلك . فإذا كنا في النهار ذكرنا أننا كنا بالأمس في
الليل ، ولو نسينا ذلك الليل ما أدركنا هذا التعاقب . ولو عشنا
في ليل مستمر ما عرفنا الأيام . وقد حكى مسجون وضع في
زنزانة لا نوافذ لها ولا إضاءة فيها أنه لم يعد يعرف الوقت . وعند

زوال تعاقب الأشياء واختلافها تفقد الإحساس بالزمان الذي يدور ، أو بالأشياء التي تتحرك داخل الزمان . وهذا ما يحدث لمن يجلس على شاطئ البحر الهادئ ويستغرق في النظر إليه ، فينسى كم لبث وينسى الزمان . ولذلك كان النوم الهادئ العميق من الفترات التي يقطعها المرء خارج الزمان . ونحن لا ندرك كم مضى علينا من الوقت في النوم إلا حين ننظر إلى المظاهر الخارجية فنرى أن النور قد أشرق ونعلم أن الصبح قد طلع . وفي ذلك يقول تعالى : « أو كالذي مرّ على قرية وهى خاوية على عروشها قال أنى يحيى هذه الله بعد موتها فأماته الله مائة عام ثم بعثه قال كم لبثت قال لبثت يوماً أو بعض يوم » . ومع ذلك فالإنسان يستطيع إدراك الوقت دون الاستعانة بمقياس خارجي كالساعة الدقاقة مثلاً ، يدركه وهو نائم ، فإذا كنت معتاداً أن تستيقظ في الصباح الساعة السادسة كل يوم لتذهب إلى عملك ، فإنك تستيقظ في هذا الموعد تماماً حتى لو كان اليوم يوم عطلة . وروى شخص أنه لم يكن معتاداً النوم بعد الظهر أبداً إلى أن اضطجع ذات مرة على أريكة ، فأخذته النوم عصراً واستيقظ عند الأصيل فرأى النور باهتاً قبل الغروب فخيل إليه أنه قد استيقظ في الفجر قبل الميعاد ، فأغمض عينيه ليكمل نومه ، ولكنه لم يستغرق في النوم ، ففتح

عينيه ليرى أن الظلام قد أصبح دامساً ، وعندئذ فقط أدرك أنه كان قد نام بعد العصر .

وروى عن بعض الفلاسفة المحدثين أنه لم يكن يحمل ساعة اعتماداً على إحساسه الشخصى بالزمن . وهكذا كان الناس يفعلون قبل اختراع الساعات الدقاقة .

جملة القول الذاكرة هي التي تمدنا بالإحساس بالزمن وتعاقب الأحداث ، وهي التي تهيب لنا سبيل قياس الزمان .

والذاكرة هي التي تمدنا بفكرة الزمان المستقبل قياساً على الماضي . والواقع أننا لا نبصر المستقبل ، بل نتبصره ، أو نتوقعه . والحياة في جملتها حركة إلى الأمام يعمل الإنسان حسابها بمقتضى ما فات . ولو ذهب عن الإنسان هذا المعنى لأصبح كالحیوان الذى يعيش فى حاضره ، أو تكيفه الظروف الخارجية ، أو تدفعه الغريزة العمياء ، أو كالوليد الرضيع الذى لا يملك لنفسه نقماً ولا ضراً ، ولكنه يعيش مع ذلك .

ولسنا نحيا حياة الوليد الذى لم يدرك بعد ، بل حياة العقلاء الذين يعتمدون على ماضيهم فى العمل مستقبلاً . ولقد استطاع الإنسان أن يجرد فكرة الزمان ، وأن يستخلصها ، وأن يمضى بها فى المستقبل إلى غير نهاية ، فنشأت من ذلك فكرة « الأبد » وهو لا نهاية الزمان فى المستقبل ، كما أن

« الأزل » لا نهاية الزمان في الماضي ، وكان الأزل والأبد عماد سائر الأديان عند المتحضرين . بل لقد طبق الإنسان هذه الفكرة على نفسه فاعتقد في خلود الروح بعد فناء البدن .

فالذاكرة هي التي تمدنا بفكرة الزمان ماضيه وحاضره ومستقبله ، فالذاكرة والزمان متصلان اتصالاً وثيقاً .

وقد أجرى بعض العلماء أبحاثاً لبيان هذه الصلة سواء عند الحيوان أو عند الإنسان فيما يختص بما سموه « الزمان الحيوي » أو البيولوجي . والزمان الحيوي متصل بالحاجات البيولوجية كالطعام والشراب واليقظة والنوم وإخراج الفضلات وما إلى ذلك .

وهذا الزمان الحيوي أساس الذاكرة الآلية التي حدثت عنها .

وقد أثبت العالم الروسي بافلوف هذه الصلة عند بحثه عن الأفعال المنعكسة المتعلقة بشرط . وفي تجربته المشهورة على الكلب ، كان يقدم له الطعام في وقت معين فيفرز الكلب اللعاب عند رؤية الطعام ، لأن الطعام مؤثر طبيعي يدفع إلى إفراز اللعاب . وكان يدق مع تقديم الطعام جرساً ، وبعد عدة مرات كان يكفي أن يسمع الكلب دقة الجرس حتى يفرز اللعاب .

ونحن كذلك نحقق حاجاتنا الطبيعية في مواعيد تعلمناها وتعودناها طبقاً لدورة زمانية لا تخطيء . فإذا حان موعد الغذاء شعرنا بالجوع ، ويقضى الطفل الرضيع حاجته في مواعيد دون أن يلوث فراشه . وإذا تعود أحدنا أن يستيقظ في ساعة معينة استيقظ في هذا الموعد حتى في أيام العطلة . وأول أيام الصوم في رمضان يكون عسيراً لخروج المرء عما ألفه . وفي بعض الأحيان ينسى الصائم فيأكل نهائياً . ومن الفكاهات التي تروى أن صائماً دخل المسجد يصلى الظهر جماعة فتحس جيبه فوجد فيه بلحاً ، فأخرج بلحة وأخذ يأكلها ، فغمزه جاره يريد أن ينبهه وينهره ، فقال له « والله هذه آخر بلحة وليس معي غيرها » .

وذهب بعض العلماء في مباحثهم الأخيرة إلى أن الغدة فوق التلموسية Hypothalamic هي التي تحتفظ بالإيقاع الزمني الناشئ من الدورات الحيوية كالجوع والعطش والنوم وما إلى ذلك ، فهي أشبه بالساعة الدقاقة للكائن الحي . والذاكرة هي أساس الزمان الاجتماعي ، هذا الزمان الذي اصطلح المجتمع عليه في تسير أموره وضبط أحوال معاشه . فقد اهتدى قدماء المصريين إلى السنة الشمسية لحاجتهم إلى الزراعة ومعرفة مواعيد الحرث والبذر والحصاد ، وأصبح الزمان

موضوعياً خارجياً يقسم إلى أعوام ، وتقسم السنة إلى فصول وإلى أيام . ولم يكن الزمن في أول الأمر ثابتاً موضوعياً كما أثبت دوركهاميم وماوس في أبحاثهما الاجتماعية ، بل نشأ أولاً في ضمير الشعوب البدائية لخدمة الاحتفالات الدينية والأعياد والمواسم ثم نشأ التقويم السنوي تابعا لهذه الاحتفالات والأعياد . ثم انتقلت فكرة الزمان من الذاتية إلى الموضوعية وأصبح الزمان عاماً للمجتمع بأسره ، لا ملكاً لشخص ، حتى أصبح الفرد مضطراً إلى التزام توقيت المجتمع الذي يعيش فيه والخضوع لقيوده . وإذا كره الإنسان المجتمع هرب منه ، وهرب من هذه القيود ، وتحلل من هذه الالتزامات ، فترى الطالب يذهب متأخراً إلى مدرسته وكذلك الموظف إلى عمله ، أو يستعين المرء بما يجعله ينسى الزمان ، فينغمس في شرب الخمر ، أو تدخين الأفيون والحشيش ، وهذا ما بينه مورودي تور وكوينسى وبودلير في مذكرات آكل الأفيون ، حيث يخيل للمدمن أن الدقيقة دهر وأن اللحظة التي يعيشها أبد لا ينتهي .

ولنما استطردنا إلى الكلام عن الزمان لأنه أساس الذاكرة محتوي في صدره على سر الأحداث الماضية ويطويها في زوايا النسيان .

وإذا أسفر الزمان عن وجهه أشرفت الذكريات .

وإذا احتجب حجبها معه وغابت عن الأنظار .

فما هو علة إشراقه وكيف تسجل الأحداث على صفحة

الزمان .

وما سبب احتجابه وكيف تختفي الذكريات في خبايا

النسيان .

هذا هو موضوع الفصول المقبلة حيث نتحدث في الفصل

الآتي عن طرق التعلم والاكتساب ، وعمما سماه العلماء « بخط

التعلم » وكيف يتجه صاعداً على مر الأيام ، لأن النسيان متوقف

على التعلم ، فكلما كان التعلم أجود وأنظم وأثبت كان النسيان

أقل وأبطأ . وإذا أردنا أن نعالج النسيان فعلينا أن نحسن التعلم .

ثم نتحدث في الفصل الذي يليه عن « خط النسيان » الذي

يتجه هابطاً على عكس خط التعلم الذي كان يتجه صاعداً .

وكلا الخطين يبينان التعلم العادي والنسيان السليم . أما الشذوذ

في النسيان الذي يعد مرضاً فهذا باب آخر .

ولا نود في هذا الكتاب الصغير أن نشير إلى مذاهب

القدماء الذين زعموا أن النفس تعلم كل شيء قبل اتصالها

بالبدن ، حتى قال أفلاطون إن العلم تذكر والجهل نسيان .

أو مذاهب الذين يعتقدون في علم النفس بعد مفارقتها البدن

سواء في حالة الحياة أم بعد الموت ، كما زعم الرئيس ابن سينا

وغيره ، لأن هذه المباحث تخرجنا عن نطاق العلم .